رؤية تحليلية نقدية في فكر الجابري: ثالوث " العقيدة والقبيلة والغنيمة"

الطالبة: آية مصدق

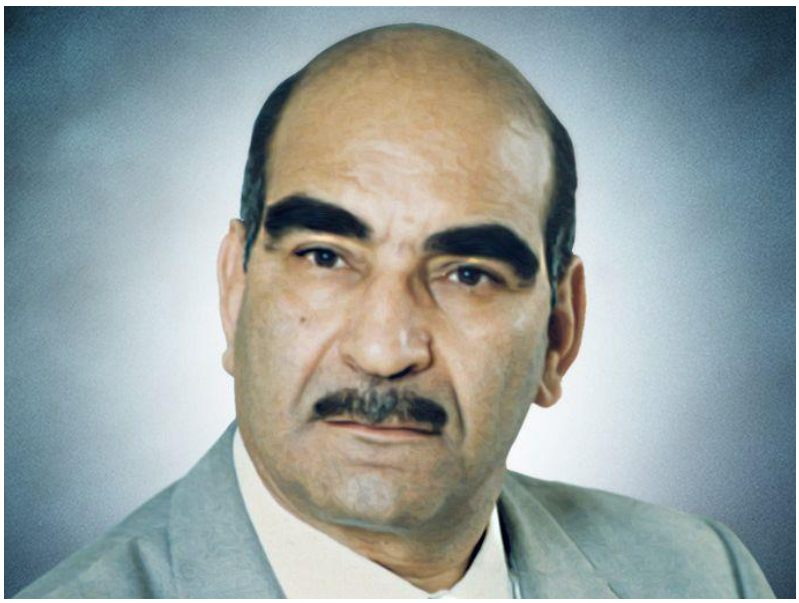

الملخص:

للعقل السياسي العربي حسب الجابري ثلاث محددات " العقيدة والقبيلة والغنيمة". يظهر مفعول "العقيدة" بقوة في الجماعة الإسلامية الأولى التي تكونت من أحداث الرجال والمستضعفين التي عذبتهم قريش لكنها لم تستطع أن تؤذي محمدًا ومن معه من الرجال من ذوي النسب القوي بسبب مفعول "القبيلة" فقد كانت هناك علاقات معقدة لم تكن تسمح لقريش بتصفية رجال الدعوة باستثناء العبيد والموالي لتقوم القبلية بدورين لدعوة المحمدية: من جهة مكنت من ضرب حصار ضدها من طرف قريش، ومن جهة أخرى وفرت الحماية لها من طرف الأقارب والجوار. والقبيلة هي الإطار الاجتماعي لاكتساب " الغنيمة"، التي تحرك المسلمين الجدد للقتال والجهاد وهم ليسوا مفعمين بعد بروح الرسالة. وبعد أن نجحت الدعوة في أن تتحول إلى دولة، ظهرت ثلاثية " العقيدة والغنيمة والقبيلة" مجددًا في حدثي "الردة والفتنة" حيث ظهر ضعف العقيدة في حركات الردة، وسيطرت الانتماءات القبلية في من يخلف النبي ويرتقي سدة الحكم. وهذه المحددات الثلاث هي التي ساهمت في تكوين العقل السياسي العربي.

المقدمة:

يحتل التراث الديني مكانة مرموقة في المخيال الجمعي العربي لدرجة الارتقاء به إلى رتبة المقدس الذي لا يمكن المساس به، ناهيك عن نقده أو الشك فيه. ويشمل التراث تاريخ الإسلام المبكر، أي فترة الدعوة النبوية وفترة الخلافة الإسلامية. لقد نشأ الإسلام وتكوّن في هذه الحقبة، وهو ما يمنحها قداستها لارتباطها الوثيق بالنبي محمد والدعوة الإسلامية، وما وقع من تدوين للقرآن وتواتر لأحاديث النبي، أي أنها بهذا المعنى مكمن الدين بتجلياته العملية المتمثلة في الدعوة والغزوات والعبادات، وصولاً إلى التدوين وتأويل النص القرآني وجمع الأحاديث بعد وفاة النبي. وبالتالي، كل ما يأتي من تلك الحقبة هو مسلمات وبديهيات لا نقاش فيها. وكل تشكيك في هذه المسلمات هو تشكيك في الإسلام ذاته.

لم يسعَ المفكر المغربي محمد عابد الجابري (1935-2010) إلى نقد هذه المسلمات لأنه اعتبرها إيمانيات الناس التي يصعب نقدها أو التشكيك فيها، لكن ما كان يعنيه هو البحث في آليات اشتغال العقل العربي الذي هو

نتاج لهذه الحقبة التاريخية. ومثلت موسوعته "نقد العقل العربي" نقدًا لطبيعة هذا العقل التسليمية. لذلك كان هدفه تحرير العقل العربي من سلطة الموروث. وهذا لا يعني القطع معه لأنه يشكل جزءًا هامًا من تكوين هذا العقل، ولكن الغاية هي بناء عقل عربي يعكف على السؤال والبحث والنقد والتجريح، ويتكيف مع متطلبات الحداثة حاضرًا ومستقبلاً، دون القطع الكلي مع الموروث ولكن بالتحرر من سلطته والانتقال من عقل تسليمي يخزن المعرفة إلى عقل متحرر ينتج المعرفة.

ومنطلق بحث الجابري هو الإشكال الذي طرحه المفكرون العرب عندما تعرضوا لصدمة حضارية تشبه إلى حد ما قصة ذلك الأرنب الذي نام في الطريق ثم تفاجأ بعد استيقاظه بالسلحفاة التي كانت خلفه قد أصبحت أمامه وتفوقت عليه. إذ كان العرب منتشين بمآثر الماضي غير قادرين على صنع المزيد منها، بل فقط التحسر عليها. ولما كان العرب في غفوة الأرنب، كانت السلحفاة تجاهد نفسها للوصول، وكان الغرب يسائل نفسه ويحدث ثورة في كل المجالات الفكرية والسياسية والاجتماعية واللاهوتية. وعندما استيقظ المفكر العربي، تفاجأ باتساع الهوة بين العرب والغرب وبدأ التفكير في سُبل النهضة التي لم يكن طريقها خاليًا من العثرات بسبب أغلال الماضي التي تعيق حركتها.

يمتلك العقل السياسي العربي، حسب الجابري، ثلاثة محددات تنظم فعله السياسي، وتتمثل في ثالوث (العقيدة، والقبيلة، والغنيمة) التي تتجلى في كل مرحلة من مراحل التاريخ الإسلامي من نبوة محمد إلى حكم الدولة العباسية. وفي هذا إقرار ببدوية نشأة العقل العربي. وقبل البدء في تحليل ، وجب الوقوف على معاني ثالوث (القبيلة، والغنيمة، والعقيدة) عند الجابري.

القبيلة: هي كل جماعة تنتظم على أساس العصبية في مواجهة الجماعات الأخرى، ويمكن أن تكون قبيلة أو طائفة.

الغنيمة: هي الكسب الذي يحصل بالقوة في الحالة البدوية، وتأتي عبر الغزو والنهب، وهي المحدد لميزان القوة.

العقيدة: هي القوة التي تجمع العصبية وتوحدها على أساس الدين.

من الدعوة إلى الدولة (العقيدة) :

تناول الجابري العقيدة التي تتمثل في الدعوة المحمدية من مظهرها السياسي، حيث ركز على ردود الفعل السياسية لخصومها المتمثلين في "الملأ من قريش"، وأشار إلى أن بعض المصادر التاريخية تؤكد أن الدعوة كانت ذات مشروع سياسي يسعى إلى إقامة دولة عربية إسلامية والاستيلاء على" كنوز كسرى وقيصر"(العقل السياسي العربي، محدداته وتجلياته، الجابري،ص57). غير أن الجابري يبين تحفظه إزاء هذه المصادر التي تجرد الدعوة من جوهرها وهو التوحيد، كما تجعل من النبي قائدًا عسكريًا ذو مطامح سياسية وليس حاملاً لرسالة سماوية. يقول الجابري: "ليس في القرآن قط، وهو المرجع المعتمد أولاً وآخرًا، ما يفيد أن الدعوة المحمدية دعوة تحمل مشروعًا سياسيًا معينًا". (المصدر نفسه ص58) ولكن عدم اعتبار النبي قائدًا عسكريًا سياسيًا فقط عند المفكر، لا يمنع قراءته للدعوة قراءة سياسية، خاصة في لحظة عداوتها مع قريش التي تمثل الوجه الذي تتجلى فيه السياسة بوضوح في فترة الدعوة.

تعتبر قريش من أقوى قبائل العرب، انطلاقًا من كونها الراعية لحج العرب والمهتمة بالكعبة. وقد مرت الدعوة المحمدية بمرحلة مكة والمدينة كما هو معروف، ونزل القرآن منجمًا في كلتا المرحلتين. خاطب في البداية " يا أيها الناس" (نفسه، ص60) لدعوتهم حتى يؤمنوا بمحمد، أما في المدينة فكان الخطاب موجهًا إلى "الذين آمنوا"(نفسه، ص60). وبالتالي، فإن مرحلة التأسيس هي المرحلة المكية التي شهدت "جماعة

روحية"(نفسه،ص60) من المستضعفين، لم يبدئوا بعد بتكوين نواة الدولة، بل كان تركيزهم يصب في فهم "العقيدة". فالمشغل في البداية كان عقديًا ايمانيًا وليس سياسيًا. وقد شكلت العقيدة القادح للاشتعال نيران الغضب القرشي، خاصة وأن النبي الذي صدع بالوحي كان من صلبهم، وهو ما يجعل الأمر أكثر سوءًا من ناحية أن الثورة على الأصنام نشأت من قبيلة تهتم بهذه الأصنام، ومن ناحية أن النبي من القبيلة نفسها، أي أن خلفه قوة قبلية، ولم يكن من المستضعفين، مما لا قبيلة لهم أو من ضعفاء القبائل، وهو ما سيطرح العديد من التحديات. سعت قريش في محاولاتها الأولى لإسكات النبي عما يدعو الناس إليه، بضربه من الناحية النفسية والسمعة الاجتماعية، إذ اتهمته بالسحر والكهانة والجنون كي يعدل عما يفعل، ولكن الوحي كان يشفي قلب النبي بآيات تؤكد نبوته وتدعوه للصبر. وفي هذه المرحلة أسلم مع محمد زوجته خديجة، ثم أبو بكر، وعثمان بن عفان، وعلي بن أبي طالب، ثم التحق عمر بن الخطاب ونفر من المستضعفين.

والسؤال الذي طرحه الجابري في هذا السياق يتمثل في "كيفية تشكل وعي الجماعة الإسلامية الأولى وكيف شيد مخيالهم الجمعي السياسي من خلال التشبع بالعقيدة".

جاء القرآن بآيات الوعيد التي تصف الجنة والنار بشكل حي ومؤثر، بلغة فصيحة تفوق سجع الكهان وقصائد الشعراء. وكانت هذه الآيات بمثابة دعوة للنفوس لتتجنب النار وتتعلق بأماني الجنة، وقد مثلت هذه المرحلة التأسيسية السرية التي استمرت ثلاث سنوات، والتي تمحورت حول مبدأ التوحيد وأركان الإيمان. و أجابت العقيدة الإسلامية على أسئلة العديد من الناس حول مصيرهم بعد الموت، وأحدثت نوعًا من الاستقرار النفسي الذي افتقدوه مع عبادة الأصنام. كما ساهمت في خلق وعي جديد حول الحياة والموت، وكان المسلمون الأوائل، الذين كانوا مستضعفين، هم من انخرطوا في هذا الوعي الجديد.

وفي السنة الرابعة من بعثة النبي، أمره الله بأن يصدع بالدعوة علنًا، ومن هنا بدأ الصراع الحقيقي بين الدعوة المحمدية وقريش. وفي هذا السياق، يطرح الجابري سؤالًا مهمًا: "لماذا لم تقم قريش بقتل محمد أو التخلص منه منذ البداية؟".

من الدعوة إلى الدولة (القبيلة):

في هذا الفصل، يتناول الجابري دور القبيلة في الممارسة السياسية، سواء بشكل إيجابي أو سلبي. حيث بدأ بتناول تاريخ القبائل القرشية في مكة والفئات التي تشكلت فيها بعد الهجرة. يعود الجابري إلى تاريخ مكة السياسية، حيث بدأ بنسب النبي محمد إلى "قصي بن كلاب"، الذي يعتبر من أعيان قريش وكان قد أسس لها مكانة عظيمة في مكة. ثم يستعرض الجابري نسب قريش، ويذكر أن النسب يمتد من "قصي بن كلاب" إلى "فهر"، الملقب بقريش، ويشمل العديد من الأجداد الذين ربطوا قريشاً بمكانة عالية في جزيرة العرب. حيث أصبحت قبيلة قريش من أقوى وأبرز القبائل في مكة بعد استيلاء "قصي" على مكة، وكان لها دور كبير في الإشراف على الكعبة وحاجات الحجاج. كما يذكر الجابري كيف أن الصراع بين "عبد المناف" و"عبد الدار" على وظائف مكة، أدى إلى تقاسم السلطة بين أبناء القبيلة. ومن ثمة ينتقل إلى الصراع الكبير بين "بني هاشم" و"بني أمية"، الذي كان له تأثير كبير في مجريات الأحداث السياسية في الإسلام. ويشير الجابري إلى أن هذا الصراع كان محوريًا في التاريخ الإسلامي، حيث شكل أساسًا للعديد من الفتن والنزاعات. أما فيما يتعلق بالدور القبلي في السياسة المكية قبل الإسلام، يوضح الجابري أن الشخص الذي ينتمي إلى قبيلة قوية كان محميًا من الأذى، لأن أي أذى يتعرض له سيؤثر على القبيلة بأكملها، مما قد يؤدي إلى حرب أهلية. وكان النبي محمد ينتمي إلى "بني هاشم"، وهي قبيلة ذات مكانة كبيرة بين قريش، وبالتالي كان أي مساس به يعني المساس بمكانة القبيلة، الأمر الذي جعل قريش تتردد في الإقدام على إيذائه في البداية. ويؤكد الجابري أن دفاع "أبو طالب" عن النبي كان أساسًا حمايته من قريش، رغم أنه لم يؤمن بدعوته في البداية. وكذلك، بدأت بعض الشخصيات القوية مثل "عمر بن الخطاب" و"حمزة" عم

النبي في الدخول في الإسلام، مما أثار قلق قريش. وأدى ذلك إلى تطبيق سياسة المقاطعة ضد المسلمين، والتي استمرت نحو ثلاث سنوات. ورغم المقاطعة، كانت هناك ثغرات قبيلية سمحت للمسلمين بالحصول على الطعام والمساعدات. من هنا، يتضح أن القبيلة كانت محركًا فاعلًا في السياسة المكية، سواء في حماية النبي ودعوته، أو في معاداتها تحت شعار "أنا وأخي على ابن عمي، وأنا وابن عمي على الغريب".

وإزاء هذا الوضع لم تتجرأ قريش على إيذاء أصحاب الدعوة ممن ينتمون لقبائل قوية اتقاءًا لتفجير الوضع في مكة وحدوث "حرب أهلية". وهكذا ظلت الدعوة حية تحت سقف القبيلة الحامية والجوار غير أن هذه القبائل التي ساندت الدعوة بفعل الجوار لم تكن تريد لدعوة أن تنتشر لأن انتشارها يعني "بروز بني هاشم على بقية القبائل" ولا يمكن تجاوز هذه المعضلة إلا بتحطيم الجدار القبلي بقوة عسكرية فالقبائل لا تطيع سوى القوي. ولكن هذه القوة العسكرية لا تتوفر إلا بالتحالفات التي لا تكون إلا لغاية سياسية.

وهذه هي ملامح تأثير القبيلة في المشهد السياسي في مكة ولكن هنالك أيضًا مرحلة أخرى عاشتها الدعوة المحمدية تتمثل في مرحلة الهجرة إلى المدينة وتأسيس الدولة لكن مجتمع المدينة كان أكثر تعقيدًا فقد جمع بين القبائل ليس فقط المختلفة في النسب، بل كذلك المختلفة في الملة، حيث سكنت يثرب قبيلتان يمانيتان هما "الأوس والخزرج " وكانوا في صراع إلى جانب القبائل اليهودية وأبرزها "بنو قريضة وبنو النضير وبنو قينقاع".

وقد بدأ صراع الأوس والخزرج بتحالفات القبائل اليهودية. ومع قدوم النبي انتقلت الدعوة من مرحلة الدعوة والصبر في مكة إلى مرحلة تأسيس الدولة والحرب وضرب مصالح قريش، وأمام أصحاب الدعوة وظيفة بناء الدولة من الداخل وممارسة السياسة مع قريش وضرب مصالحها من الخارج وكانت أول عقبة واجهت النبي هي تنظيم عيش المهاجرين في المدينة وإقحامهم في جسمها الأكبر ومن هنا جاء مصطلح "الإخوة في الدين" حيث اعتبر النبي المهاجرين إخوة الأنصار (الأوس والخزرج) في الدين يحق موارثة بعضهم البعض وحلت "الأمة" و"الملة" مقام

"العشيرة" و" القبيلة" أما بالنسبة لطريقة التعايش بين الأنصار والمهاجرين واليهود فهذا ما أقرته وثيقة "الصحيفة" التي أصدرها للنبي.

من الدعوة إلى الدولة (الغنيمة):

يبدأ الجابري الفصل بسؤال طرحه الخليفة الأموي "عبد الملك بن مروان" حول سبب تمسك قريش بأصنامها. وفي إجابته، يشير الجابري إلى ملاحظة هامة؛ إذ كان من أشد المعارضين لدعوة النبي محمد من قريش أولئك الذين يمتلكون المال. وبالتالي، فإن الخطر لم يكن على الأصنام نفسها، بل كان يتعلق بالأموال والمصالح الاقتصادية التي كانت تدرها الأصنام فلم تكن قريش تعتبر الأصنام أيقونات دينية يجب الدفاع عنها، بل كانت تعتبرها مصدرًا لجذب الناس وجني الأموال من خلال الهدايا وإقامة الأسواق. وعليه، كان إشعاع مكة التجاري ينطلق أساسًا من الأصنام، وكان الخوف يكمن في أن يؤدي تدمير هذه الأصنام إلى تدمير المصالح الاقتصادية المرتبطة بها. ولهذا السبب، حاربت قريش الدعوة المحمدية التي أعلنت إيمانًا بإله واحد، في كل مكان، بما أن ذلك يُهدد مصالحها التجارية.

هنا يظهر دافع الغنيمة، وهو الخوف من فقدان المكاسب الاقتصادية، كأحد الأسباب الرئيسية لمعارضة قريش. ويذكر الجابري أن عرب الجاهلية لم يكن لديهم مفهوم عميق للدين، بل كان التركيز على الجانب المادي، فمكة لم تكن مركزًا دينيًا بالمعنى التام، بل كانت مدينة تجارية تهتم بمكاسب الحج والرحلات التجارية. وكانت وظيفة القائمين على الدين، مثل الكهانة، تنحصر في الرعاية المادية للمكان، ولم يكن لهم دور ديني بمعناه الكامل. وبالتالي، "لم يكن الحج عند عرب الجاهلية شعيرة دينية وحسب ، بل كان أيضا موسمًا تجاريًا بالغ الأهمية"(نفسه،ص103). أما بالنسبة لموقف قريش من الدعوة، فلم يكن نابعًا من عقيدة دينية بقدر ما كان سياسيًا واقتصاديًا فمما أثار قلق قريش ليس الدين الجديد ذاته، بل ما يمكن أن يحمله هذا الدين من تغيير في موازين القوى الاقتصادية والسياسية. وبعد أن بدأ النبي في" ضرب مصالح قريش" عن طريق مهاجمة قوافلها

التجارية، لم يكن ذلك دافعًا للغنيمة بقدر ما كان محاولة لإخضاع قريش للإسلام، ولكن الغنيمة بدأت تدخل في حسابات قادة الدعوة، وأصبحت أحد المحفزات القوية للجهاد، ومع تتابع الغزوات، أصبح أثر الغنيمة واضحًا، حيث استخدمها المسلمون ليس فقط لتجهيز الجيوش ولكن أيضًا لتحفيزهم على المشاركة في المعارك. وتوالت الأحداث، حيث حاول يهود بني النضير الغدر بالنبي، ولكن النبي تمكن من محاصرتهم وهزيمتهم، ففروا إلى الشام. ثم تحالفوا مع قريش مع يهود بني قينقاع من أجل الانتقام، فشهد المسلمون معركة الأحزاب، التي انتهت بانتصارهم، مما وسع من دائرة الدولة وأعطاها انتصارًا معنويًا وماديًا. ثم جاء حدث عظيم قلب كل الموازين، وهو تغيير القبلة من بيت المقدس إلى مكة. فبفضل هذا التحول، انتهى الخوف الذي كان يراود قريش من أن يتأثر مركزها التجاري، فالإسلام سيظل يحافظ على مكانة مكة كمركز للحج والتجارة. وفيما بعد، وبفضل المفاوضات والصلح الذي تم في الحديبية، اعترفت قريش بمحمد وتنازلت عن موقفها العدائي، مما مهد الطريق لتعايش سلمي.

وفتحت مكة، وجمعت الغنائم في معركة حنين وغزوة تبوك. وعلى الرغم من ذلك، بدأ يظهر بعض التقاعس في صفوف المسلمين، خاصة عندما أراد النبي الهجوم على جيش الروم. فاضطر إلى الاستنجاد بأصحابه السابقين الذين تكفلوا بتمويل الجيش. وهنا برزت الحقيقة، وهي أن الغنيمة كانت الدافع الأساسي للمشاركة في الغزوات وليست العقيدة. ومع مرض النبي في أواخر حياته، بدأت العديد من القبائل في الارتداد، ما عدا مكة والطائف، الذي يدل على ضعف الإيمان لدى بعضهم، مما مهد للفتنة التي تلت وفاته.

من الردة إلى الفتنة (القبيلة):

كانت لحظة وفاة النبي مفاجأة كبيرة للصحابة، خاصة أنه لم يعين من يخلفه، فبدأت حركات التوتر والفتن تظهر بين المسلمين . اجتمع الأنصار في سقيفة بني ساعدة ليتشاوروا بشأن من سيخلف النبي ويحفظ الدولة الإسلامية. وانضم إليهم أبو بكر وعمر، وبدأ صراع محتدم حول من يجب أن يخلف النبي. وقد كان هذا الصراع بين الأنصار والمهاجرين، وكلا الجسمين كان يضم شقوق داخلية، مما يزيد من تعقيد الموقف السياسي في المدينة. وفي النهاية

تمخض عن حادث السقيفة تحديد الأسس المشروعية للخلافة المتمثلة في: الأساس القبلي، وهو الانتماء لقبيلة قريش، وأساس ديني هو السابقة في الاسلام وكانت هذه الأسس في صف أبي بكر والواضح هنا أن منطق القبيلة عاد لظهور مجددا و" أن الصحابة عالجوا مسألة الخلافة معالجة سياسية محضة" (نفسه، ص136). كما ظهر منطق القبيلة في صفوف المهاجرين من بني هاشم وغيرهم وتختلف الروايات حول موقف علي بن أبي طالب من خلافة أبي بكر بكر ويورد الجابري روايات مختلفة فيها من تقول أن علي سارع لمبايعة أبو بكر وفيما ما تقول أنه بايعه في وقت متأخر ومن تقول أنه امتنع عن المبايعة.

لقد كان علي ابن عم وصهر النبي وأحد المسلمين الأوائل ولكن لم ينفرد بهذه الخصوصيات كما أن العرب لم يكونوا يعتمدون الوراثة ولا يهتمون بالقرابة بل بالكفاءة السياسية أما النبي ذاته لم يجعل لصحابة خاصية على مستوى العقيدة فهو وحده النبي الذي يوحى إليه ولا يمكن لنبوة أن تورث. وبهذا المعنى وقع الفصل في مسألة الخلافة بمنطق القبيلة واستطاع أبو بكر القضاء على الردة أما طريقة مبايعة عمر فقد كانت أقل حيرة لتجنب صراع السقيفة إذ قام أبو بكر بتعيينه لما مرض عن طريق المعاهدة أما الخليفة الثالث فقد عين عن طريق الشورى بالاختيار ستة من المبشرين بالجنة من بينهم علي وعثمان ووقع الأمر على على عثمان.

ولكن لماذا ترك النبي أمر الخلافة وتعيين الخليفة لاجتهاد الصحابة؟.

يجيب الجابري عن هذا السؤال وهو أن النبي كان مبلغ رسالة دينية محضة ولم يكن لا ملكًا ولا حاكمًا بل كان يكره أن ينعت بهذه الألقاب وقد أدخل السياسة من أجل الضغط على قريش وتأسيس دولة إسلامية جوهرها إبلاغ الرسالة ولما أتم رسالته مات تاركا أمور الدنيا شورى بين الصحابة وآيات القرآن معبرة عن هذا "وأمركم شورى بينكم" (الشورة_38) "شاورهم في الأمر"(آل عمران_159). وأثناء خلافة عثمان طفت القبيلة إلى السطح مجددًا بين بني هاشم الممثلين في علي بن أبي طالب وبني أمية الممثلين في عثمان بن عفان وقد كان بني أمية وبصفة عامة بني عبد شمس أكثر عددا من بني هاشم أي أن العددية كانت لصالح عثمان، خصوصا بعد

فتح مكة ودخول قريش إذا ما أخذنا في عين الاعتبار النفوذ السياسي والتجاري داخل الدولة بهذا الشكل ستكون الكلمة الأولى والأخيرة لبني أمية وقد أكد الجابري أن دولة النبي دولة اتحادية الطبع قامت نواتها على صحيفة النبي وهي أشبه ما تكون "بالدستور الاتحادي" وتكرس هذا الطابع عندما دخلت القبائل الإسلام سواء بمبادرة من زعمائهم أم تلبية لدعوة مكتوبة من النبي أو رضوخا لدولة الجديدة والدخول للإسلام يعني الرضوخ لسلطان السياسي لدولة الدعوة وقد أصبحت الدولة مع وفاة النبي تضم تقريبا الجزيرة العربية كلها ولكن بعد وفاته بدأت القبائل بالردة وكأنها تنتظر هذه اللحظة فتمردوا على عمال "الصدقات" وتحرروا من "الإتاوة". لكن أبو بكر نجح في قمع حركات الردة وفي عصر عمر الخطاب بدأت الفتوحات أما في عثمان بن عفان فقد كسب كراهية الناس عندما جعل أقاربه يتولون المناصب العليا فتجمعت الثروة في يد قلة وأصبح لعثمان أعداء تمردوا عليه إلى أن قتلوه يوم الدار وانفجرت بعد هذه الأحداث الفتنة الكبرى وطالب معاوية بدم ابن عشيرته وفي الأثناء بويع علي بن أبي طالب في المدينة وكانت بيعة كما وصفها هشام جعيط (1935_2021م) " فوق جسد عثمان الدامي" (الفتنة،ص142) ثم انتقل إلى الكوفة ليقاتل ثالوث الجمل وانتهت المعركة بفوزه ثم واقعة صفين بين علي بن أبي طالب ومعاوية وانتهت بالتحكيم وخروط بعض الجنود عن علي ونشأ منهم الخوارج ثم قُتل علي وظل ابنه الحسن العقبة الوحيدة أمام معاوية لكن الحسن جنح لسلم وبايع معاوية وسمي ذلك العام بعام الجماعة وهذه أبرز ملامح الفتنة الكبرى التي خذتها القبيلة.

من الردة إلى الفتنة (الغنيمة):

بعد وفاة النبي امتنعت القبائل على دفع "الإتاوة" وهي عبارة عن ضريبة تدفعها القبائل لدولة الدعوة ما دامت موازين القوى لصالحها وما إن تتغير هذه الموازين حتى تمتنع القبائل عن دفع هذه الإتاوة التي اعتبرتها دائما دليل خضوع وكانت هنالك قبائل تطمح إلى سدة الحكم والسيطرة على دولة الدعوة وهنالك من زعم النبوة وأمام هذه الوضع الشائك كان لازاما على أبو بكر أن يظهر القوة حتى تخضع كل الأطراف وهو ما فعله عندما حارب الرظة

وأعاد سيادة الدولة وقاد فتوحات نتجت عنها غنائم وزعها أبو بكر على أساس الخمسة التي ذكرها القرآن "لله ورسوله ولذي القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل"(الأنفال_41)

وبتالي فإن الغنيمة كانت تلعب دورا سياسيًا هامًا في زمن الخلفاء الراشدين إذ أنها كانت تمثل "العدل" أي العدل في العطاء كما مثلت سببًا في الانقلاب على عثمان الذي لم يكن عادلا في هذا العطاء وعلى علي الذي يكن يهمه العطاء بقدر العقيدة، إذ مثل الأعراب جماعة ترتزق من الغنائم، كانوا شعب غنيمة وكانت دولة الدعوة دولة فتوحات توفر هذه الغنيمة. كما تسببت الغنيمة في الفتنة عندما وزعها عثمان بشكل غير عادل كما كانت لصالح معاوية الذي استطاع الاستيلاء على دولة الدعوة من خلال توفيقه بين الغنيمة والعقيدة.

من الردة إلى الفتنة(العقيدة):

استهل الجابري الفصل بملاحظة عن الفصلين السابقين وهي أن القبيلة والغنيمة كان لهما دور كبير في الردة والفتنة فالقبيلة كانت تؤطر الحدثين والغنيمة كانت المحرك الأساسي لهما.

كما مثلت الردة على غرار رفض دفع الاتاوة ارتدادا على العقيدة فقد عرفت ظاهرة الردة ظهور مدعي النبوة الذين كانوا يقلدون النبي ويطمحونا لتأسيس دولة دعوة مثله واعتبر الجابري أن هذه الظاهرة أي ظاهرة إدعاء النبوة ظهرت قبل قيام الدولة المحمدية بظهور حركة دينية واسعة النطاق أطلق على أصحابها إسم "الحنفاء" ومن بينهن " خالد بن سنان العباسي" ومن الحنفاء المشهورين أيضا "زيد بن عمرو" إظافة إلى دهور "المسيحية المتهرمسة" كل هذه الحركات ظهرت قبل النبي لذلك كانت العرب تظنه أحد المنتسبين لهذه الحركات وأدرج الجابري مدعي النبوة في هذا الفصل وأسهب الحديث عنهم لأنهم كانوا متسببين في ظهور الردة ولكن الجابري يؤكد في نهاية الفصل أن العقيدة لم تلعب دورًا واضحا في حادثة الردة والفتنة كما لعبتها القبيلة والغنيمة وقد

وصف عصر الخلفاء الراشدين بعصر إنتقال " من الوثنية إلى التوحيد من التنزيل إلى التأويل ومن دولة الدعوة إلى دولة الفتح".

النقد:

ربط الجابري محددات العقل السياسي العربي "العقيدة والقبيلة والغنيمة" بالإسلام وفترة الدعوة المحمدية وما حصل إثرها من فتن وردة وبهذا الشكل يرتبط اللاوعي السياسي العربي بالموروث الديني الاسلامي. ولا يخفى عن أحد طرافة هذا الثالوث والدراسة النقدية الفلسفية العميقة التي قام بها الجابري في بحثه عن كيفية تشكل اللاوعي السياسي العربي ولكن ألم يظهر هذا الثالوث أي " العقيدة والقبيلة والغنيمة قبل الاسلام؟ لماذا إذًا ركز الجابري على فترة الدعوة وما بعدها وما حجة قوله"أن الممارسة السياسية في الحضارة العربية الإسلامية بدأت مع ظهور الإسلام" (نفسه، ص35) ألم يعتبر الممارسة السياسية في إحدى وجوهها ظاهرة في ما تقوم به قريش من استغلال لموسم الحج لاستقطاب القبائل وتلقي الهدايا وإحياء التجارة. أليس هذا تشكل لمفهوم الغنيمة؟ ولكن متى ظهرت قريش ومتى بدأت تقوم بسقاية الحج؟ أجاب الجابري على هذا السؤال من خلال العودة إلى نسب النبي وشجار الاخوين عبد المناف وعبد الدار على سقاية الحج هذا يعني أن هذه الممارسة ظهرت حتى قبل وجود محمد وبالنسبة لمفهوم للقبيلة ظهرت القبائل بانشقاقاتها وتحالفاتها قبل الدعوة، أليست حروب القبائل والتحالفات والمصالح نوعًا من الممارسة السياسية؟ وأما العقيدة، فقد ظهرت عند الأعراب الذين كانوا موحدين لكنهم يعتمدون الوساطة بين العبد والرب عن طريق الأوثان وهو ما عبر عنه الجابري وكذلك برزت من خلال حركة الحنفاء والمسيحية الهرمسية ولو كان منطق العقيدة جديدًا على الأعراب لكان موقفهم من النبي مختلفًا تمامًا وليس المقصود أنهم سيتقبلونه منذ البداية ، ولكن كانت الدعوة ستلفت انتباههم بشكل أكبر ولآمن معه كثرة في مكة وليس قلةُ.

إذًا اللاشعور السياسي موجود سلفًا عند العرب ولم يكن مرتبط بظهور الإسلام ، فحتى الآيات نزلت على محمد لتقوده وتكشف له في كل مرة دسائس المجتمع ومن حوله من المنافقين فلم تكن مهمة محمد سهلة في بيئة تتجذر فيها الأعراف والحسابات القبلية، ولا يحظى فيها الدين والعبادة بمكانة هامة. إذ لم يكن هناك رجال دين يطوفون حول الأصنام ويعلمون الناس طقوس العبادة بل كانت مكة أشبه بمجتمع قبلي بدوي تحكمه التجارة يقوم بالحج إشباعًا للعاطفة الدينية مع جلب ما يمكن بيعه أثناء الحج من بضاعة، فالأعراب لا يدينون إلا بدين الأقوى والدليل على ذلك أن النبي لما كان يدعوا للإسلام في المرحلة المكية لم يؤمن به سوى قلة من أهله ومستضعفي القوم وعندما أسس دولة الدعوة وكسب تحالف القبائل وأصبح لديه جيش وغنائم دخل الأعراب في دين الله أفواجا ومع وفاة النبي شعروا بأن الدولة ستنهار فارتدوا عن الإسلام لأن الدين لم يكن يعنيهم بل الأقوى، الأقوى مالاً ونسبًا. وهذه الأيديولوجيا موجودة سلفًا حتى قبل قدوم الإسلام ومن الطبيعي بروزها عند قدوم الإسلام لأنه ليس حدثا عاديًا ولكن ربط الممارسة السياسية بالإسلام يعني ضمنيًا نفي وجودها قبل الإسلام وهو ما لا يستقيم منطقيًا.

وبكل ما أسلفنا القول نخلص إلى أنه لا يكفي ربط العقل السياسي العربي بالموروث الديني حتى نفهم أليات اشتغاله بل يجب ربطه أيضًا باللحظة الأولى التي تشكل فيها العرب من نسل إسماعيل وتركزهم في شبه الجزيرة العربية وطرق تكيفهم مع البيئة البدوية الصحراوية هذه البيئة ستشكل شئنا أم أبينا جزء من لاشعورهم إضافة إلى طرق تقسيم قبائلهم وصلاحيات قائد القبيلة وكيف يعلنون حروبهم وتحالفاتهم كل هذه ممارسة سياسية سابقة للإسلام يمكن البحث فيها وليس النظر إليها انطلاقا من الإسلام، لأن موروث العرب ليس فقط الدين الإسلامي بل القبلي البدوي الجاهلي أيضًا والنظر إلى ماضيهم على أنه فترة ظهور الاسلام فقط سيجعلنا نغيب كل ما حصل قبل تلك الفترة وأثر فيها لاحقًا. إذا " لماذا يعتبر أغلب الدارسين فترة ظهور الإسلام هي بداية تاريخ العرب صحيح أن العرب ارتبط نفوذهم وقوتهم بظهور الإسلام وما نشأ عنه من فتوحات وتوسع جغرافي

ونفوذ سياسي ونحن لا نفي أهمية فترة ظهور الإسلام في تاريخ العرب ولكن الدراسات الموضوعية يجب أن تتطرق إلى ما قبل الإسلام فكما نعود لمرحلة الطفولة حتى نفهم تكون الشخصية يجب العودة إلى طفولة العرب لفهم كيفية اشتغال العقل العربي ماضيًا وحاضرًا وكيف نتجاوز أخطائه مستقبلاً.

الخاتمة:

ذكر محمد عابد الجابري ثلاث محددات تحكم العقل السياسي العربي وهي "العقيدة والقبيلة والغنيمة" في محاولة منه لفهم آليات اشتغال العقل السياسي العربي انطلاقا من العودة إلى الموروث الذي ارتبط به وهو الموروث الديني المتمثل في الإسلام الذي اعتبر ظهوره إيذانًا ببداية الممارسة السياسية لدى العرب إلاّ أنه أغفل أنه هذه الممارسة وهذا الثالوث المحدد للعقل السياسي العربي موجود سلفًا ومتجذر لدى الأعراب كما تتجذر النخلة في واحاتهم.

المصادر والمراجع:

المصادر :

الجابري، محمد عابد. العقل السياسي العربي: محدداته وتجلياته*. الطبعة الأولى، 1990، مركز دراسات الوحدة العربية.

المراجع:

جعيط، هشام. الفتنة: جدلية الدين والسياسة في الإسلام المبكر. الطبعة الثالثة، 2000، دار الطليعة للنشر.

برنارد لويس. العرب في التاريخ. ترجمة نبيه أمين فارس، الطبعة الثانية، 1993، دار العلم للملايين.

الدخاخني، محمد . مقال: الجابري وفينومينولوجيا العقل السياسي العربي، أكاديمية طه العلواني للدراسات القرأنية2019